

أثر الأخلاق في إصلاح المجتمع



«الإسلام، رسالة مكارم الأخلاق، بمعناها العام والشامل لكل نواحي السلوك الإنساني، وبهذا نطق الرسول الكريم (ص)، فقال: "إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"[1]، وروي عنه (ص) أَنَّهُ قَالَ: "الإسلام حُسْنُ الْخُلُقِ"[2]، وقال (ص) - وهو القدوة والأسوة لسائر المسلمين -: "أَدِّبْ بَنِي رَبِّ" فأحسن تأديبي"[3]، وشهد بذلك الوحي المنزل، فقال تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم/ 4).

وقد أكَّد القرآن الكريم في الكثير من مواضعه على طهارة النفس وتزكيتها، ورفعته السلوك واجتناب الرذائل، فقال تعالى: (وَنَفْسٍ وَنَفْسٍ وَسَوْأَهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) (الشمس/ 9-7).

وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (البقرة/ 222).

وأكد الإسلام على الارتباط الوثيق بين الإيمان والسلوك الأخلاقي القويم في معادلة متقابلة، إذ يكون الإيمان: صلاحاً عبادياً واقتصادياً وأخلاقياً، بعضه من بعض، قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلْأُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (المؤمنون/ 1-11).

فالصلاة عنوان للعبودية والتقوى بالاجتناب عن عمل المنكرات، فقال (ص): "مَنْ لَمْ تَنْهَ صَلَاتِهِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ مِنْهُ إِلَّا بُعْدًا"[4].

والصلاة أيضاً مرتبطة بالصالح الاقتصادي المتمثل بالإنفاق في سبيل الله ورعاية المحرومين، وهكذا اقترنت الصلاة في أكثر الآيات بالزكاة والإنفاق، كقوله تعالى:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (البقرة / 3).

وأيضاً نظافة السلوك وسموه عن الرذائل الأخلاقية التي تحط من الشأن الإنساني فضلاً عن الشأن الإيماني.

ومن ثمّ " الإلتزام الأخلاقي الرفيع بالإلتزام بالعهود الاجتماعية وحفظ الأمانات ورعاية حقوق الناس.

ويمكن أن نجمع ذلك في أنَّ الإيمان والعمل الصالح توأمان لا يفترقان في سائر نشاط الإنسان ومحطات حياته، فالإيمان يشع في الوجود الإنساني: النور، ويبعث في روحه الحركة نحو الخير، والعمل الصالح هو استجابة النفس لذلك الإيمان وتصديق السلوك لصدقه وإخلاصه، وهو يرجع بدوره ليؤكد الإيمان ويثبتته، قال تعالى: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) (فاطر/ 10).

فالأخلاق الحسنة لا تعني أن يكون الإنسان حلو اللسان، ليِّن العريكة، دمث الخلق.. فتلك من الكماليات في الأخلاق، لا الضروريات والواجبات، فما قيمة كل ذلك مع الخيانة في الأمانة؟ أو الفحشاء والمنكر والبيغي، أو الكذب والإحتيال، لذلك يعرف الإمام عليّ بن أبي طالب دُسن الخُلُق بأزّه السلوك القويم والتصرُّف السليم، فيقول: "دُسن الخلق اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسُّع على العيال".

وهكذا نجد في القرآن الكريم، المكارم والفضائل في الأخلاق والأعمال، تتردّد كثيراً في سورة، فأكد على العفة والإحتشام وغيض البصر[5]، والصدق[6]، والتواضع[7]، وكظم الغيظ[8]، واجتناب سوء الظن[9]، والصبر[10]، والإعتدال[11]، وحسن الاستماع والاتباع[12]، وإخلاص السرائر[13]... إلخ.

وفي المقابل، اجتناب الكذب وقول الزُّور [14]، والذِّفَاق [15]، والبخل [16]، والإسراف [17]، والكبر والعجب [18]، والتفاخر [19]، والحسد والطمع [20]، والزُّنا [21] وتعاطي الخمر والخبائث [22]، وتعاطي الكسب الخبيث [23]، وكل وَسَخٍ أخلاقي [24]... إلخ.

وأخيراً، نورد إجمالاً لأُمّهات الفضائل التي يُمدّز بها القرآن المسلم الحق عن غيره [25]:

قال تعالى: (وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ الْذَرِيرَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (البقرة / 177).

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رُسُلِهِمْ يَنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ السَّادِقُونَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ حَقًّا) (الأنفال/ 2-4).

(وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (الحج/ 34-35).

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ

هُمُ لَأَمَانًا تَهَيَّمُوا وَعَهْدَهُمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْلِ شِكَاةٍ فِيهَا مَصْبَاحُ الْمَصْبَاحِ فِي رُجَاةِ الزُّجَاةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * فِي بَيْتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رَجَالٌ لَا تُلَاهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) (النور/ 35-37).

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاعَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا رِبَّ لَهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْزَاقِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرْقَةً أَعْيُنَ وَاجِعِلْنَا لِلْإِمْتِقَانِ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) (الفرقان/ 63-76).

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَصَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (السجدة/ 15-17).

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (الأحزاب/ 35).

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْكِتَابِ كِتَابًا مَثَانِيًا مَثَانِيًا تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (الزمر/ 23).

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (الشورى/ 36-40).

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ

فِي وَجْهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الفتح/ 29).

(إِنَّ الْمُنْتَفِقِينَ فِي جَنَّتَاتٍ وَعُقُيُونَ * أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبِيلَ ذَلِكَ مُجْسِمِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَفُونَ * وَالْأَسْحَارُ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْيَتَامَى وَالْمَحْرُومِ) (الذاريات/ 15-19).

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلْيَتَامَى وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّوْمَ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا مُنَّوْنِ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ أَيْتَعَى وِرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّتَاتٍ مُكْرَّمُونَ) (المعارج/ 19-35).

المصدر: كتاب نظرية الإصلاح من القرآن الكريم

[1] - كنز العمال، خ5218.

[2] - نفس المصدر، خ5212.

[3] - الجامع الصغير، للسيوطي، ج1، رقم الحديث 310.

[4] - كنز العمال، رقم الحديث 20083.

[5] - سورة النور: 31-30، 33.

[6] - سورة الزمر: 33.

[7] - سورة لقمان: 19.

[8] - سورة آل عمران: 134.

[9] - سورة الحجرات: 12.

[10] - سورة البقرة: 155.

[11] - سورة الفرقان: 67.

[12] - سورة الزمر: 3-18.

[13] - سورة النساء: 114.

[14] - سورة الحج: 30.

[15] - سورة البقرة: 204-206.

[16] - سورة الحشر: 9.

[17] - سورة الإسراء: 26-27.

[18] - سورة النمل: 23.

[19] - سورة الكهف: 32-44.

[20] - سورة النساء: 32.

[21] - سورة الإسراء: 32.

[22] - سورة المائدة: 90-91.

[23] - سورة النساء : 29.

[24] - سورة المدثر: 2-5.

[25] - انظر: دستور الأخلاق في القرآن الكريم، للمرحوم د. محمد عبد الله دراز، ص 690 فما بعده، وقد عقد باباً في الأخلاق العملية ضم نصوصاً مختارة من القرآن الكريم قسمه على فصول في الأخلاق الفردية، والأسرية، والاجتماعية، وأخلاق الدولة، وأخلاق الدينية، وأخيراً: إجمالاً لمّهات الفضائل الإسلامية.